مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٤) العدد (٣)
الإصدار الرابع عشر
٢٠٢٣ (٤٧-٣٠)

الطاعون في الأدب المملوكي

د. شيرين محمد سليمان

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١١ نوفمبر ٢٠٢٣م

الملخص

تتناول هذه الدراسة ظاهرة ذكر المرض أو الوباء في الأدب، وتحديدا مرض الطاعون في العصر المملوكي، حيث تناولت الدراسة ما ذكره بعض أدباء العصر المملوكي بشأن الطاعون في القرن السادس عشر شعرا ونثرا، وتطرقت إلى أسباب انتشاره وأماكنه وأعراضه، ثم تناولت بشيء من التفصيل السمات الفنية لأدب هذه الظاهرة في ذلك العصر.

وتهدف الدراسة إلى إثبات جودة الأدب في العصر المملوكي، وتطرقه إلى الأحداث الجسام التي تناولها الأدب، حيث أن الأحداث –لا شك– تؤثر في مضامين الشعر والنثر، وتحدث نقلة نوعية وتغيرا في المشهد الأدبي مضمونه وأسلوبه، كما تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على حقل أدبي واسع وهو (الأمراض في الأدب) خاصة بعد انتشار وباء الكورونا مؤخرا وما تركه من أثر حيوي واضح على الشعر والنثر وحركة التأليف بشكل عام.

هذا وتناولت الدراسة مرض الطاعون من حيث ماهيته وأعراضه وعلاجه، بالإضافة إلى الناحية التاريخية التي ركزت على أماكن انتشاره وقوة فتكه وطرق الوقاية، وانتقلت للتحدث عن ذكره في الأدب لدى أشهر شعراء العصر المملوكي، ومن ثم أظهرت السمات الفنية التي تجلّت فيه.

وخلصت الدراسة إلى نتائج أهمها أنه لا يمكن الفصل بين النواحي الإنسانية والواقعية وبين الأدب، فما هو إلا انعكاس لها. وخلصت الدراسة إلى توصية مفادها ضرورة إفراد سلسلة من الأبحاث والدراسات التي تتناول موضوع الأوبئة في الأدب ودورها في تنشيط الحركة الأدبية وتجديدها وتنويع موضوعاتها، حيث أن الكثير من الأمراض الوبائية ظهرت في المئة سنة الماضية واستحوذت على اهتمام الأدباء والمؤلفين.

الكلمات المفتاحية: الوباء، العصر المملوكي، الطاعون الأسود، الحجر الصحي.

Abstract

This study deals with the phenomenon of mentioning disease or epidemic in literature, specifically the plague disease in the Mamluk era. For the literature of this phenomenon, you have the era.

The study aims to prove the quality of literature in the Mamluk era, and its touch on the grave events dealt with in literature, as the events - no doubt - affect the contents of poetry and prose, and bring about a quantum leap and change in the literary scene in its content and style. This study also aims to shed light on the field of A broad literary work, which is (diseases in literature), especially after the recent spread of the Corona epidemic, and the clear vital impact it left on poetry, prose, and the writing movement in general.

This study dealt with the plague disease in terms of its nature, symptoms, and treatment, in addition to the historical aspect, which focused on the places of its spread, its deadly force, and methods of prevention.

The study concluded with results, the most important of which is that it is not possible to separate the human and realistic aspects from literature, as it is only a reflection of it. The study concluded with a recommendation that it is necessary to single out a series of research and studies that deal with the topic of epidemics in literature and its role in revitalizing the literary movement, renewing it, and diversifying its topics, as many epidemic diseases appeared in the past hundred years and captured the attention of writers and authors.

Keywords: epidemic, Mamluk era, black plague, quarantine.

*** المقدّمة**

في التّاريخ البشريّ كلّ شيء مما طاب وخبث، وهذا ديدن الحياة وسنّتها، فبناء الحضارات قد يعقبه انهدام، والتّفوّق والعلوّ قد يصير إلى انحدار وتلاش، وكلّ حياة لا بدّ أن تنتهي إلى موت. والتّاريخ الإسلاميّ جزء من التّاريخ البشريّ على هذه الأرض، وقد حفل كغيره بأحداث جلل، منها ما ارتفعت به نحو علياء المراتب، ومنها ما حاولت طمره تحت التّراب، ولكنّها لم تنل منه، حتّى وإن أضعفته وأنهكته، فمن قلب الظّلام كان يومض نورا، وبعد كلّ نكبة كان يستردّ عافيته، ويعيد بناء مجده. والطّاعون أحد تلك النّكبات التي عصفت بتاريخنا الطّويل مرارا، فكان ذلك العدوّ الغاشم، الذي تجبّر وبغى، وحصد من المسلمين–عامتهم وعلمائهم وفقهائهم– ما استعصى على جبابرة الصّليبيين والمغول واليهود. ورغم تلك المحنة الكبيرة، والموت المحقّق، إلّا أنّ المنكوبين وثّقوا كلّ ذلك في تصانيفهم، لنجد مدرسة متكاملة في ذلك الموضوع، فالطّاعون كان حدث المؤرخين وقصيدة الشّعراء وموعظة الفقهاء وميدان تسابق الأطباء ومحطة الرّحالة.

وأكثر التّصانيف والدّواوين التي تناولته كانت في العصر المملوكيّ، أي بعد القرن السّادس الهجريّ، تلك الفترة التي يعكس أدبها إبداع الكتّاب والشّعراء، ويفنّد ما أشيع حول ذلك العصر من زيف الادعاء والأحكام السّطحيّة التي انتقصت من حقّه، وهي أحكام يطلقها محدودو النّظر أو مبطنو المكر، تحت ذريعة أنّه أدب يحفل بالزّينة! وأيّ عيب في أن يحفل الشّيء بالزّينة؟ ألم يقل الله تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم)!؟، أليس الله بجميل يحب الجمال!؟ فأيّ إبداع إذ تقرأ نصّا يرثي فيه الشّاعر نفسه قبل وفاته بيومين، متجاوزا الحالة النّفسيّة والجسديّة المتردّيّة التي يمرّ بها، وأيّ مهارة تلك التي يوثق بها آخر تاريخا حافلا مُهمّا في شطر بيت فقط، وأيّ إنسانيّة لّما تجد طبيبا قد كرّس حياته لدراسة هذا الوباء ووصفه وطرق الوقاية وايجاد العلاج، ووثّق كلّ ذلك باسم الله والإنسانيّة، وبلغة القرآن المعجزة، أين القصور في كلّ ذلك؟

ف"الطّاعون في الأدب المملوكيّ" هو عنوان بحثي، وتحديدا في بلاد الشّام ومصر، ما بعد عام 700 هجريّ، رغم أنّ حوادث الطّاعون في تاريخنا كثيرة، إلّا أنّ ذلك القرن اتّسم بقسوته وتعدّد طواعينه..

أمّا المنهج الذي اتبعته في بحثي فكان منهجا تكامليّا يجمع بين المنهج التّاريخيّ في عرض تمهيد حول تاريخ هذا الوباء. ومنهج تحليليّ يقوم على شرح ما احتواه الأدب من أفكار وموضوعات حول الطّاعون، ووصفيّ يقوم على وصف لغة الأدب وخصائصها.

وقد اعتمدت في بحثي على عدد من المصادر، مثل: بذل الماعون في فضل الطّاعون للعسقلانيّ، وبعض الدّواوين مثل: ألحان السّواجع للصّفديّ وديوان ابن الورديّ، بالإضافة إلى عدد من المراجع أهمّها: آفاق الشّعر العربيّ في العصر المملوكيّ لياسين الأيوبيّ.

وقد جعلت بحثي في ثلاثة فصول، تحدّثت في الفصل الأوّل عن الطّاعون: تعريفه وأسباب انتشاره وأشهر حوادثه. ثمّ تحدّثت في الفصل الثّاني عن أهم ما كتب في الطّاعون من شعر ونثر، وفي الفصل الثّالث خصّصت البحث عن بعض الملامح الفنيّة لأدب الطّاعون.

*** مشكلة الدراسة**

تسعى هذه الدراسة لمعرفة دور الأدب في تسجيل التّاريخ، وتأدية رسالته لخدمة المجتمع والأفراد، ولمس مواطن العبر، بأسلوب يتّسم بفنّيّة عالية. هذا الأدب الذي سار على نهج القدماء في إبداعهم وأضاف إلى تراثهم الشّيء الكثير، فكان السبّاق في التّأريخ الشّعريّ، والتّألق البلاغيّ، وذكر الأحداث والمستجدّات، مثل ذكر المرض في الشّعر والنّثر ووصفه والإحاطة به، وما قصائد الكوليرا والسّحايا والسّلّ لدى بعض المحدثين إلّا تقليد له، ناهيك عن مرض العصر (الكورونا) الذي شغل حيزا كبيرا لدى الأدباء والكتاب، ولعل الدراسة القادمة ستبحث فيما كتب عن هذا الوباء المنتشر. ويفترض في هذه الدراسة أن تجيب عن الأسئلة الآتية:-

١- إلى أي مدى تأثر أدب العصر المملوكي بالمشهد الوبائي الخطير

٢- هل حط هذا التأثر من مستوى الأدب الفنّي أم اتسم بالإبداع والتطور.

٣- ما أبرز السمات الفنيّة التي اتسم بها أدب الطاعون في عصر المماليك.

*** ما يميز هذه الدراسة عن غيرها**

لعل تناول الأوبئة في الأدب من الموضوعات الشيقة والجذابة، فهي خروج عن المألوف وعن الموضوعات والأغراض التقليدية، سيما وأنها تتسم بلمحة علمية، وهذا ما سعت له الدراسة: الجمع بين أكثر من مشهد (الأدبي والعلمي والتاريخي والإنساني)، هذا المزج يخلق تفاعلا منسجما بين العقل والعاطفة، ويستحضر في الذهن شيئا من تاريخنا بناء على ما نعيشه اليوم.

*** في الطّاعون**

*** الطّاعون لغة واصطلاحا**

الطّاعون **لغة**: من طعن "والطَّعْن جمع طعنة ورجل مطعان: كثير الطّعن للعدوّ، ويطعن: ذهب ومضى (ابن منظور، 1994، ص266) والطّاعون: داء معروف والجمع الطّواعين، وطُعِنَ الرّجل: أصابه الطّاعون، والطّاعون: المرض العامّ، والوباء الذي يفسد له الهواء، فتفسد به الأمزجة والأبدان (ابن منظور، 1994، ص267) وجاء في الحديث:"الطّاعون رجز أو عذاب، أرسل على من كان قبلكم"(مسلم، 2006، 2218-92).

واصطلاحا "مرض وبائيّ يصيب الفئران وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى، وإلى الإنسان" (العسقلاني، 1411هـ، ص22). و "هو الوجع الذي يطفئ الرّوح كالذّبحة".. وسمي طاعونا لعموم مصابه، وسرعة قتله، فيدخل فيه مثله"(العسقلاني، 1411هـ، ص95). فلفظة طاعون استخدمت للأمراض والأوبئة الفتاكة سريعة الانتشار.

*** أنواع الطّاعون والوقاية منه**

صنّف الأطباء الطّاعون إلى ثلاثة أنواع: **الطّاعون الليمفاويّ الورميّ**، وقد وصفه ابن سينا بأنّه "مادّة سمّية تحدث ورما قاتلا، يحدث في المواضع الرّخوة من البدن كتحت الإبط –هو الأعمّ الأغلب– ويشكّل نحو ثلاثة أرباع حالات الطّاعون، إذ يبدأ برعشة، ثمّ قيء، فصداع، فدوار وألم في الظّهر والأطراف.. وترتفع الحرارة بسرعة ويرافقه انهيار ملحوظ"(العسقلاني، 1411هـ، ص23).

والنّوع الثّاني هو **الطّاعون الرّئويّ**، الذي يسبب الالتهاب الرّئويّ ثمّ امتلاء الرّئة بالسّائل والوفاة السّريعة، والنّوع الثّالث هو **طاعون تعفّن الدّم**، إذ يتعرّض الدّم لغزو بكتيريّ يقود إلى انهيار جسديّ، وتلف سريع بالدّماغ، وتحدث الوفاة خلال أربع وعشرين ساعة وتتراوح فترة الحضانة بالمرض في العادة ثلاثة أيّام إلى ستّة، وفي حالات معينة تكون أقلّ بكثير، ولا تمهل المريض الذي يفاجئه الوباء أكثر من ستّ وثلاثين ساعة. (ينظر: العسقلاني، 1411هـ، ص24)

ويمكن معالجة غالبيّة الأمراض الفطريّة بمركّبات السّلفا (الكبريتات) والمضادات الحيويّة، خصوصا عند اكتشافه مبكرا.(العسقلاني، 1411هـ، ص25) وقد لجأ المسلمون إلى اتّخاذ إجراءات للحدّ من انتشاره، فيما يسمى ب"الحجر الصّحيّ"، مقتدين بسيدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام لّما قال: "إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارا منه"(مسلم، 2006، 92-2218) وقال تاج الدّين السّبكيّ: "إن شهد طبيبان عارفان مسلمان عدلان، أنّ ذلك –يعني مخالطة الصّحيح

للمريض- سبب في أذى المخالطة، فالامتناع من مخالطته جائز، أو أبلغ من ذلك".(العسقلاني، 1411هـ، ص27)

أسباب انتشار الطّاعون ويعود السّبب في انتشار الطّاعون بشكل وبائيّ إلى وقوع العدوى به عن طريق الهواء، ما جعله وباء إذا حلّ بمنطقة جاء على أهلها، خصوصا بعد الحروب وتكاثر الجثث وانعدام النّظافة، كالطّاعون الذي نتج عن تحلّل الجثث بعد سقوط بغداد على يد المغول. (ينظر: الذهبي، 1998، ص42)

وكان انتشار الجراد في بعض البلاد سببا آخر لانتشاره، فمثلا، هاجم الجراد بَرقة، وأتى على كلّ أحيائها، وأكل لحم البشر، ما تسبب بانتشار الوباء بينهم، ودفع كثيرا منهم إلى الفرار تجاه مصر، وهذا ما ساعد في انتشار الطّاعون بمصر بين عدد كبير من الخلق وأهلكهم. (ينظر: ابن الجزري، 1998، ص257)

كما أنّ فيضانات النّيل في مصر تسبّبت في كثرة المستنقعات التي تعدّ مرتعا ملائما لتكاثر الحشرات والقوارض، وبالتّالي انتشار الأوبئة والطّواعين. (ينظر: ابن كثير 1977، ص276) والطّاعون مرض من أمراض القوارض وإصابة الإنسان به تكون عرضيّة، بسبب تواجد تلك القوارض في المنازل، إذ تنقل البراغيث والحشرات الصّغيرة المتطفّلة على الحيوانات الميتة ذلك الوباء إلى البشر. (ينظر: العسقلاني، 1411هـ، ص24) وينطبق ذلك على حيوانات البريّة، فكان المرض "في القطاط وبعض الطّيور وبعض الجمال وغالب الأوابد من حيوانات البريّة، فإنّ جماعة أخبروا أنّهم رأوا شيئا كثيرا من الأيائل والحمر الوحشيّة مطروحة في البريّة وتحت إبطها خراج". (الصفدي، 2004، ص119) وقد وصفت كتب الأدب والطّبّ أعراضه بالتّفصيل، وهو ظهور الطّلوع وبصق الدّم "كان الإنسان يصبح وقد وجد بوجهه طلوعا، فما هو إلّا أن يمرّ بيده عليه، مات فجأة". (المقريزي، 1970، ص722)

نبذة عن أهمّ حوادث الطّاعون في التّاريخ: وقد عرف الطّاعون عالميّا، وحصد أكثر من ثلثي السّكّان في بعض مناطق أوروبا، وأطلق عليه في القرن الرّابع عشر الميلادي اسم الموت الأسود، وبلغ ذروته في ذلك الحين، أيّ حوالي سنة (833هـ)، وقد قضى فيه حوالي خمس وعشرين مليون نسمة. (ينظر: العسقلاني، 1411هـ، ص25)

أمّا في العصور الإسلاميّة، فقد وقعت عشرات الكوارث من الأوبئة والطّواعين عبر التّاريخ الإسلاميّ. كان أوّلها طاعون شيرويه بالمدائن في عهد الرّسول عليه السّلام. (العسقلاني، 1411هـ ص361)، ثمّ طاعون عمواس الذي وقع في عهد عمر بن الخطّاب سنة (17 هـ) والذي مات فيه خمسة وعشرون ألفا منهم عدد كبير من الصّحابة، (ينظر: الطبري، ص60 وص101) م تلاحقت نكبات الطّاعون على امتداد التّاريخ الإسلاميّ، "وكان عامّة الموت في النّساء والأطفال والشّباب والعوائق والصّبيان أكثر من الكهول، ثمّ في الكهول أكثر من الشّيوخ، وكان في العوامّ أكثر من الجند، فالحاصل أنّه لم يمت فيه من العساكر والشّيوخ والعجائز إلّا اليسير". (العسقلاني، 1411هـ، ص367)

وقد وقعت في عصر المماليك ما عرف بمأساة طاعون عام (656هـ)، وانتشر في العراق وانتقل بواسطة الرّياح والبشر إلى بلاد الشام. (ينظر: الذهبي، 1998، ص42) في تلك السّنة "كثر الوباء ببلاد الشام، فكان يموت من حلب في كلّ يوم ألف ومائتا إنسان، ومات من أهل دمشق خلق كثير". (المقريزي،1970، ص144) وفي ذات

السّنة أيضا "اشتدّ الوباء بالشّام، خصوصا دمشق، حتّى لم يوجد مغسل الموتى"، (العمري، 2010، ص247) وكان الموتى يدفنون في حفر جماعيّة متراصين إلى جانب بعضهم بعضا. (ينظر: ابن الجزري، 1998، ص282)

وقد انتشر طاعون في بلاد الشام كافّة سنة (726هـ)، خاصّة حلب ودمشق، وقد أصاب خلق كثير، منهم مؤرخون وأدباء، مثل المؤرخ ابن الجزريّ (الزركلي ،2002، ص45) وأهل بيته، وأرّخ لذلك قائلا: "حصل بدمشق للنّاس مرض وحمّى وسعال ونزلات، بحيث مرض كلّ من في دمشق، ولم يبق بيت بلا مرض، بحيث كنّا في البيت سبعة أنفس، مرضوا السّبعة، في وقت واحد" (الزركلي، 2002، 123). وأشار إليه المقريزيّ ب "أنّه حدث وخم وفناء عمّ النّاس من الفرات إلى دمشق، فلم تبق مدينة فيما بين ذلك حتّى كثر بها المرض والموت". (المقريزي، 1970، ص492)

ومن حوادث الطّاعون الشّهيرة التي قضى فيها آلاف البشر في عصر المماليك طاعون عام (749 هـ)، إذ كانت أعداد الموتى أكثر من أن تعدّ وتحصى، لدرجة أنّ بعضهم لم يكن يصلى عليه، وكانت القاهرة مركز تلك الكارثة، ثمّ انتشر في البلاد المحيطة بها، وكان المصاب بالطّاعون يتقيأ الدّم وبعد وقت قليل يهلك. (ينظر: المقريزي، 1970، ص762) وذكر ابن كثير وغيره، أنّ هذا الوباء استمرّ إلى بداية سنة (750هـ) (ينظر: ابن كثير، 1977، ص260)

وانتقل الطّاعون من مصر إلى الشّام جبالها وسواحلها وغورها، فحلّ بغزّة وانتشر حتّى بلغ شمال حلب وبلاد ماردين، وفتك بأهل تلك البلاد، وقد قيل أنّ بعض المدن لم يبق من أهلها أحد كاللدّ والرّملة، وملئت الخانات بجيف الموتى. (ينظر: المقريزي، 1970، ص774)

ولعلّ طاعون سنة 749 هـ، لم يسبق له مثيل في عهد الإسلام، إذ كان يموت في القاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف أو عشرين ألفا يوميّا. (ينظر: المقريزي، 1970، ص721)، وعملت النّاس التّوابيت لتغسيل الموتى للسّبيل بغير أجرة.. وحفرت الحفائر وألقوا فيها، وكانت الحفرة يدفن فيها الثّلاثون والأربعون" (المقريزي، 1970، ص721) وقيل في هذا الطّاعون: "وكان الموت في الشّباب والكهول والصّبيان والنّساء من العوامّ، فأمّا الملوك والعساكر والمشايخ والعجائز، فلم يمت منهم إلّا القليل" (الصفدي، 2004، ص118) وقد عدّ المؤرخون هذا الوباء، أحد الأسباب الرّئيسة لبداية انحدار دولة المماليك اقتصاديّا وديموغرافيّا، إذ كانوا هم الأكثر تأثّرا، كونهم أغرابا عن المنطقة وفقدوا كثيرا منهم خاصّة الشّباب. (الباحثون السوريون، ص2موقع إلكتروني)، وقد أرّخ كثير من الشّعراء لتلك السّنة بحساب الجمّل منهم صلاح الدّين الصّفدي (الزركلي، 2002، ص315)، يقول (ص113):

(البسيط)

يا عام "طاميم ذال" فيك أيّ عنَا قاسى الأنام رداه من فلسطين

كم رأينا فناء فيه نهر فنا تدور منه طواحين الطّواعين

*** ما وثّقه المؤرخون حول الطّاعون**

وممّا قاله المؤرخون والرحّالة في ذلك ما يلي:-

ابن بطوطة في رحلته، يصف انتشار المرض في غزّة، يقول: "بلغني الخبر في حلب، أنّ الوباء وقع بغزّة، وانتهى عدد الموتى إلى زائد على الألف في اليوم الواحد، فسافرت إلى

حمص، فوجدت الوباء وقع بها، ومات يوم دخولي إليها نحو ثلاث مئة إنسان". (ابن بطوطة، 1968، ص639)

كما وصفه المقريزيّ: "عمّ أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، جميع أجناس بني آدم وغيرهم، حتّى الحيتان في البحر، وطير السّماء ووحش البرّ، ويقول: انتشر الوباء بأرض مصر عامة حتّى بلغ في شعبان عدد من يموت في كلّ يوم مئتي إنسان". (المقريزي، 1970، ص720)

وقال ابن خلدون: "هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا، في منتصف هذه المئة الثّامنة من الطّاعون الجارف الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدّول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها، وقلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التّلاشي والاضمحلال أموالها". (ابن خلدون، ص32)

وجاء في كتاب الشيخ شهاب الدّين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة، يصف الطّاعون: "عمّ البلاد وأباد العباد، وقطع كلّ درب، وساوى بين أهل الشّرق والغرب، فكثرت به الأوجاع، وانتقل بمصر من الإصبع إلى الذّراع، ثمّ تيمّم بها الصّعيد، وترك النّاس كالزّرع ما بين قائم وحصيد". (العسقلاني، 1970، ص379)

وجاء في مقامة النّبا عن الوبا لابن الورديّ "طاعون روّع وأمات، وابتدأ خيره من الظّلمات، يا له من زائر، من خمس عشرة سنة دائر". (ابن الورديّ، 2006، ص87)

*** الطّاعون في الأدب**

إنّ الأدب –بشعره ونثره– هو اللسان النّاطق بحال الأمة، وترجمان البيئة، وذاكرة الزّمن، وقد كان للطّاعون صدى كبير في كتب الأدب ودواوين الشّعر، إذ تناوله الأدباء والشّعراء والمؤرخون بكثير من التّفصيل في مؤلفاتهم وأشعارهم ورسائلهم ومقاماتهم، مثل رسالة "النّبا عن الوبا" لابن الورديّ (ت749هـ)، و"حلّ الحبا لارتفاع الوبا" لولي الدّين محمّد بن عثمان الدّيباجيّ (ت774هـ). "والطّب المسنون في دفع الطّاعون" لأبي حجلة التّلمسانيّ (ت776هـ)، و"وصف الدّاء في كشف آفات الوباء" للشّيخ عبد الرّحمن الأنطاكيّ الحنفيّ (ت858هـ)، ورسالة "الإباء عن مواقع الوباء" لإدريس البدليسيّ (ت930هـ). (ينظر: العسقلاني، 1970، ص32–ص37)

*** ذكْر الطّاعون في الشّعر**

انطلقت ألسن الشّعراء في العصر المملوكيّ، يصفون المرض، ويتحدثون عن أعراضه وانتشاره في البلاد، فتشابهوا تشابها كبيرا في الأفكار وعرض الصّور البيانيّة، وفي الألفاظ والصّيغ والعواطف، وقد غلب على تلك الأشعار القصر والإيجاز، فقد جاء أغلبها على هيئة نتفة أو مقطوعة تتسم بالوضوح والاختصار، ولعلّ مردّ ذلك فظاعة الموقف، وبشاعة المرض، وسرعة فتكه، فلم يعنَ الشعراء حينئذ بالإطالة أو إعادة النّظر في النّظم (ينظر: الأيوبيّ، 1995، ص222) ويمكن تصنيف الشّعر الذي قيل في الطّاعون إلى ما يلي:–

*** وصف المرض وأعراضه**

أكثر شعراء ذلك العصر من وصف مرض الطّاعون، يقول ابن الورديّ (ابن الوردي،2006، ص89):–

(مجزوء الرّجز)

سألت بارئ النّسم في دفع طاعون صدم

فمن أحسّ بلع دم فقد أحسّ بالعدم

وهنا يشير ابن الورديّ إلى أبرز علامة على تفشي المرض وفتكه، والنّهاية الموشكة، وهي لحظة بصق الدّم، يقول (ابن الوردي، 2006، ص89):-

(مجزوء الرّمل)

حلـــــــب والله يكفي شـــــرّها أرض مشقّه

أصبحت حيّة ســـوء تقتل النّاس ببزقه

إذ يورد الشّاعر مفارقة عجيبة، فيعزي ذلك الموت الكارثيّ الفظيع، الذي عمّ البلاد إلى بصقة! كما حوّل ذلك الوباء أجمل المدن إلى أفاع سامّة وقاتلة، تفتك بسكّانها.

ويصوّر الصّفدي هذه الأعراض تصويرا مروّعا حين يشبه بصق الدّم بالذبح الذي تمّ بغير سكّين، يقول (الصفدي، 2004، ص115):-

(الكامل)

يا رحمتا لدمشق من طاعونها فالكلّ مغتبـــــــق به مصطبحْ

كم هالك نفث الدّم من حلقه أوما تراه من غير سكّين ذبح

ويشير ابن الورديّ إلى علامة أخرى من علامات هذا المرض وهي ظهور حبّة خلف الأذن (ابن الوردي، 2006، ص88):-

(مجزوء الرّمل)

أصلح الله دمشـــــقا وحـــــــماها عن مســــــــبّه

نفســـها خسّت إلى أن تقتل النّاس بحبّه

هنا يخبّر ابن الوردي عن الحال المتردي في دمشق، ويدعو لها بالصلاح ويجنّبها الشتائم، رغم أنّها جارت على أهلها بالسّماح لهذا المرض بالتّفشي فيها، وهو يشير إلى الطاعون من خلال أعراضه، إذ " يخرج خلف أذن الإنسان بثرة"، (المقريزي،1970، ص775) أي حبّة صغيرة ما يلبث أن يصرع بعدها.

وقد شابهه بهذه الصّيغة ابن فضل الله العمريّ، الذي يقول (العمري، 2010، ص19):-

(مجزوء الرّمل)

قبح الطّاعون داء ذهبت فيه الأحبّه

أرخص الأنفس بيعا كلّ إنسان بحبّه

إذ كان ظهور تلك الحبّة يعني هلاك النّفس لا محالة، فصار انتهاء أعمارهم مرهونا بحبّة.

ويقول جمال الدّين ابن نباتة مصوّرا بؤس الحالة ورخص الأرواح، وكثرة الموت ويشير إلى علامة المرض (ابن نباتة، 2012، ص50):-

(الخفيف)

سر بنا عن دمشق يا طالب العيـــ ش فما في المقام للمرء رغبه

رخصت أنفس الخلائق بالطّا عون فيها، فكلّ نفس بحبه

وشبّه الصّفدي علامة الطّاعون خلف الأذن بالطّعنة، فتلك الحبّة الصّغيرة تفعل فعل الطّعنة القاضية، ولا ينجو منه أحد حتّى المؤمنون، يقول (الصفدي، 2004، ص115):-

(الطّويل)

تعجب من طاعون جلق إذ غدا وما فاتت الآذان وقعة طعنه

فكم مؤمن تلقاه أذعن طائعا على أنّه قد مات من خلف أذنه

ويشير الصّفدي إلى علامة أخرى لهذا المرض الوبائي، وهو ظهور حبّة تحت الإبط، يقول (الصفدي، 2004، ص115):-

(الوافر)

رعى الرّحمن دهرا قد تولّى يحاذي بالسّلامة كلّ شرط

وكان النّاس في غفلات أمر فجا طاعونهم من تحت إبط

وهو كذلك يتحسّر على ذلك الزّمن الذي سبق هذه الكارثة، حيث نعم الناس فيه بالأمن والسّلامة، وكانوا يصدّون كلّ عدوّ يقاتلهم، ليأمنوا أذاه ومكره، إلّا أنّ هذا العدوّ قد غافلهم وداهمهم من حيث لم يحتسبوا.

وبلغت سهولة انتشاره إلى درجة ربطه بحاسّة الشّمّ، فالطّاعون مرض ينتقل عبر الهواء بالرّائحة، وأيّة سخرية تلك التي تجعل مقتل الإنسان مرهونا بشمّ روائح المرض المبثوثة في الهواء الفاسد، وقد سبق الصّفديّ كثيرا من الكتّاب والشّعراء الذين جعلوا للموت رائحة وللمرض طعم، يقول (الصفدي، 2004، ص114):-

(السّريع)

دارت من الطّاعون كأس الفنا فالنّفس من سكرته طافحة

قد خالف الشّـــــــرع وأحكامه لأنّه يثبـــــت بالرّائحة

*** وصف انتشاره في البلاد**

وصف كثير من الشّعراء انتشار الطّاعون في البلاد، وتشابهت صيغهم في ذلك، فكان منهم من ذكر جهات العالم الأربع، ومنهم من ذكر الأمكنة التي تفشى فيها المرض وأهلك أهلها، ومنهم من وثّق ذلك تأريخا، منهم الشّيخ بدر الدّين حسن بن حبيب، يقول (ابن تغري بردي، 1949، ص212):-

(الخفيف)

إنّ هذا الطّاعون يفتك في العا لم فتك امرئ ظلوم حسود

ويطوف البلاد شرقا وغربا ويسوق الخلوق نحو اللحود

فالشّيخ ابن حبيب يصف انتشار الوباء في العالم، إذ بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ولم ينج منه أحد حتّى الأتقياء ذوي الأخلاق، ثمّ إنّه يصوّر بشاعة فتكه، فيجعل منه إنسانا حاقدا ظالما، وصِفتا الحقد والظّلم إذا اجتمعتا، آلتا إلى نتيجة مدّمرة تخلو من كلّ معاني الرّحمة والتّعقل.

وقال الصّفديّ مصوّرا حال البيوت بعد اجتياح المرض لها، بحال الأسواق يوم الجمعة، إذ تخلو من الحياة والبشر، يقول (الصفدي، 2004 ص115، ص 116)

(السّريع)

مصيبة الطّاعون قد أصبحت لم يخلُ منها في الورى بقعة

يدخل في المترل لو أنّه مدينة أخلاه في جمعه

ويقول واصفا انتشار المرض بدمشق (الصفدي، 2004، ص114):-

(الكامل)

أمّا دمشق فإنّها قد أوحشت من بعد ما شهد البريّة أنسها

تاهت بعجب زائد حتّى لقد ضربت بطاعون عظيم نفسها

فكأنّما جنت دمشق على نفسها بعد أن فخرت بإنجازات كبارها وعلمائها وعمرانها، فما لبث أن انقلب ذلك التّيه عليها وبالا، فصارت مقفرة موحشة وفريسة سهلة لوباء عظيم.

ويتتبع ابن الورديّ سير المرض في المدن كأنّما يصف مسار رحلته، من مصر مرورا بفلسطين ثمّ إلى الشّام، يقول (ابن الوردي، 2006 ص87):-

(مجزوء الكامل)

إسكندريّة ذا الوبا ســـــــــــــبع يمدّ إليك ضبعه

صبرا لقســـــمته التي تركت من السّبعين سبعه

وفي انتشاره بحماة، يقول (ابن الوردي، 2006، ص88):-

(الكامل)

يا أيها الطّاعون إنّ حماة من خير البلاد، ومن أعزّ حصونها

لا كنت حين شممتها فسممتها ولثمت فاها آخذا بقرونها

فهو يبكي تلك المدينة الحصينة التي نال منها الطّاعون، وذلّلها، ومنها اتّجه شمالا إلى حلب، وفيها يقول (ابن الوردي، 2006، ص88):-

(مجزوء الرّجز)

إنّ الوبـــــــا قد غلبا وقد بدا في حلـــــــــبا
قالوا له على الورى كافٌ ورا قلـــــــت وبـــا

وما يدلّ على تتبّع ابن الورديّ لمسار رحلة الطّاعون أنّه ذكر سلامة بعض المدن منه، كمعرّة النّعمان، "ثمّ دخل معرّة النّعمان فقال لها أنت مني في أمان، حماة تكفي في تعذيبك، فلا حاجة لي بك" (ابن الوردي، 2006، ص88) إذ يقول:-

(البسيط)

رأى المعرّة عينا زانها حور لكنّ حاجبها بالجور مقرونُ
ماذا الذي يصنع الطّاعون في بلد في كلّ يوم له بالظّلم طاعونُ

فجور حاكمها قد سدّ مسدّ ذلك الطّاعون، إذ كفاها الله شرّ الطّاعون الحقيقيّ، وابتلاها بطاعون الظّلم والفساد.

وقال الصّفديّ، واصفا أثر الطّاعون في عدّة مدن، ومصوّرا إياه بالحاكم الباغي (الصفدي، 2004، ص113):-

(البسيط)

قد قلت الطّاعون وهو بغزّة قد جال من قطية إلى بيروت
أخليت أرض الشام من سكانها وحكمت يا طاعون بالطّاغوت

*** حال النّاس من الطّاعون**

تعدّدت آراء الأدباء في مرض الطّاعون، وكثرت التّآليف في ذكر أسبابه، وتعليل حدوثه، كما تغيّرت طباع النّاس أمام هذا الوحش المفترس القبيح، وتبدّلت اهتماماتهم وأهدافهم، ووصل الأمر بالبعض إلى رثاء نفسه قبل موتها.

كثير من النّاس يعزو الكوارث الطّبيعية والأوبئة إلى كثرة الذّنوب، فتلك الكوارث تأتي على هيئة عذاب إلهيّ، وهذا ما أكدتّه قصص الأمم السّابقة، وما سلط عليهم من عذاب لاستكبارهم في الأرض وإتيانهم الفواحش، وممارسة الظّلم والموبقات، يقول تعالى:"ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلّهم يرجعون" (سورة الرّوم، 30/ 41) فالطّاعون فساد في البر والجوّ والبحر، وهو فساد من فعل الإنسان كالحروب وإحداث التّلوث ونشر القذارات. وهذا ما فطن إليه كثير ممن عايش تلك المحن والكوارث، يقول ابن الورديّ (ابن الوردي، 2006، ص90):-

قالوا: فساد الهواء يردي فقلت: يردي هوا الفساد
كم ســـــيئات وكم خطايا نادى عليكم بها المنادي

ويقول الصّفديّ (الصفدي، 2004، ص114):-

(الخفيف)

أيقظتنا يد الغلاء مرارا لنراعي التّقى فلم نتنبّه
وغدا الظّلم بالقناطير فينا فلهذا الطّاعون صار بحبّه

إذ يعزو صلاح الدّين الصّفدي سبب الوباء إلى الظّلم، وإلى بخس حقوق النّاس، والتّلاعب والتّحايل، وإلى كثير من الآفات الاجتماعيّة التي غزت المجتمع الإسلاميّ، فنتج عن ذلك ضيق الحال وغلاء المعيشة وانتشار الأمراض التي باتت هي الشّيء الوحيد بالمجّان. يقول (الصفدي، 2004، ص114):-

(الكامل)

أسفي على أكناف جلق إذا غدا الط طاعون فيها ذا زناد واري
الموت أرخص ما يكون بحبّة والظّلم زاد فصار بالقنطار

ثمّ يسلّم بأمر الله وقضائه، فالدّاء لم يستثنِ أحدا، لا كافرا ولا مؤمنا، فهو أمر الله، يقول (الصفدي، 2004، ص116):-

(الكامل)

آمن بالله العظيم مقدر الط طاعون حتّى عمّ كلّ النّاس
كم معشر فقدوا به في جمعة أتراهمُ كانوا من الأشراس

أمّا عامّة النّاس فقد غيّر المرض طباعهم، ورقّق مشاعرهم ويصف ابن الورديّ ذلك وصفا تفصيليّا، يقول (ابن الوردي، 2006، ص91):-

فهذا يوصي بأولاده وهذا يودع جيرانه
وهذا يهيئ أشـــغاله وهذا يجهّز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه وهذا يلاطف إخوانه
وهذا يوســـــــع إنفاقه وهذا يخالل من خانه
وهذا يحبس أملاكه وهذا يحرّر غلمانه
وهذا يغيّر أخلاقه وهذا يعيّر ميزانه
ألا إنّ هذا الوبا قد سبا وقد كان يرسل طوفانه
فلا عاصم اليوم من أمره سوى رحمة الله سبحانه

فمظاهر توبة النّاس تبدو جليّة، كمصالحة الخصوم وترك النّصب والاحتيال وتحرير الرّقاب، إلى جانب كتابة الوصايا وتوديع الجيران وملاطفة الإخوان، فلا ساعة أكثر حزما وصدقا من ساعة النّهاية، ولا قيمة لشيء بعدها سوى للعمل الصّالح والرّجوع إلى الله بقلب تائب.

في حين لجأ الشّعراء إلى مواساة أنفسهم ورثائها قبل موتها، ويبدو أنّ إحساسهم بدنوّ الأجل كان إحساسا مصيبا، ومنهم جمال الدّين إبراهيم المعمار، الذي تنبّأ بموته ورثى نفسه مسبقا، في طاعون سنة (749هـــ)، يقول (ابن تغري بردي،1949، ص212):-

(السّريع)

يا طالب الموت أفقْ وانتبه هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا

وكان منهم ابن فضل الله العمري الذي رثى نفسه قبل وفاته بيومين (العمري، 2010، ص34):-

(السّريع)

قلت لأقلامي اكتبي وانطقي فقالت الأقلام واسوأتاه
وشقّت الألسن من حزنها وولولت واسوّد وجه الدواة

ويقول ابن الوردي قبل وفاته بيومين مسلّما بقضاء الله (ابن الوردي، 2006، ص281):-

(الوافر)

ولست أخاف طاعونا كغيري فما هو غير إحدى الحسنيين
فإن متّ استرحت من الأعادي وإن عشت اشتفت أذني وعيني

ويظهر كذلك حال أعداء الإسلام من كارثة المسلمين، فحالهم متوقّع وهو الشّماتة والتّشفي، وتلك هي عادتهم ودأبهم، وهذا ما ذكره ابن الورديّ في رسالته (ابن الوردي، 2006، ص90):-

(الكامل)

سكّان سيس يسرّهم ما ساءنا وكذا العوائد من عدوّ الدّين
الله ينقله إليهم عاجلا ليمزّق الطّاغون بالطّاعون

*** ذكر الطّاعون في النّثر**

وردت في النّثر الأفكار ذاتها التي وردت في الشّعر، بصيغ قصيرة مسجوعة، وكان أبرز تلك القطع النّثريّة مقامة ابن الورديّ أو رسالته "النّبا عن الوبا"، إذ عدّها البعض رسالة،

إلّا أنّها احتوت خصائص المقامة أكثر، لما ورد فيها من أسلوب قصصيّ تفصيليّ، وعبارات قصيرة مسجوعة، ومنها قوله:

"الله لي عدّة، عند كلّ شدة، حسبي الله وحده، أليس الله بكاف عبده، اللهم صل على سيّدنا محمّد وسلم، ونجنا بجاهه من طعنات الطّاعون وسلم، طاعون روّع وأمات، وابتدأ خبره من الظّلمات، يا له من زائر، من خمس عشرة سنة دائر، ما صين عنه الصّين، ولا منع عنه حصن حصين، سل هنديّا في الهند، واستند على السّند، وقبض بكفيّه وشبك على بلاد أزبك، وكم قصم من ظهر، فيما وراء النّهر، ثمّ ارتفع ونجم، وهجم على العجم، وأوسع الخطى، وقرم القرم، ورمى الرّوم بجمر مضطرم، وجرّ الجرائر إلى قبرص والجزائر، ثمّ قهر خلقا بالقاهرة، وتنبهت عينه لمصر فإذا هم بالسّاهرة، وسكّن حركة الإسكندريّة، فعمل شغل القزّ الحريريّة، وأخذ من دار الطّراز طراز الدّار، وصنع بصناعتها ما جرت به الأقدار.. ثمّ تيمّم الصّعيد الطّيّب، وأبرق على برقة منه صيّب، ثمّ غزا غزّة، وهزّ عسقلان هزّة، وعكّ إلى عكا، واستشهد بالقدس وزكّى، فلحق من الهاربين الأقصى بقلب الصّخرة، ولولا فتح باب الرّحمة لقامت القيامة في كرّة، كما طوى المراحل ونزل بالسّاحل، فصاد صيدا، وبغت بيروت كيدا، ثمّ سدّد الرّشق، إلى دمشق، فتربّع وتمّيد، وفتك كلّ يوم بألف أو أزيد، فأقلّ الكثرة، وقتل خلقا ببترة.." (ابن الوردي، 2006، ص87)

ابتدأ ابن الورديّ رسالته بحمد الله واستعانته به وتوكّله عليه، والدّعاء بالنّجاة من كارثة الطّاعون، ذلك الزّائر البغيض الذي روّع البشر على امتداد الزّمن، ثمّ تسلسل في الحديث عن الأماكن التي أصابها الوباء، فلم يصمد أمامه بلد ولا حصن، من شرق الأرض إلى غربها فانتشر في الهند والسّند والصّين، وعمّ شمال إفريقيا من برقة إلى حدود غزة، ومن هناك انتشر في الشّام ومحيطها، وأفنى البشر دون رحمة أو رأفة.

ويقول الصّفديّ في وصف مشابه، وعبارات مسجوعة: " أوّل ما دخل هذا الطّاعون إلى الشّام من غزّة، وأدخل إصبع كلّ واحد تحت رزّة، وفعل فيها في تلك النّاحية ما فعل، ورمى فلم يخط المقاتل، كأنّما هو رام من بني ثعل، وما قطّ عنها حتّى وثب إلى قطيا، وبرت سهامه بيروت بريا.. ولّما دخل صفد أخنى عليه الذي أخنى على لبد، فما ترك بها أحد من الأهل والمعارف، حتّى اجتحفه سيله الجارف، فكم من صاحب جاءنا عنه ناعيه، ودعاه إلى البلا داعيه" (الصفدي، 2004، ص113). فصوّر الصّفديّ دخوله إلى أرض فلسطين والشّام وبيروت، ورميه النّاس بالموت كالرّامي الذي لا يخطئ هدفه.

"ثمّ إنّه بعد ذلك حلّق إلى جلق وانقضّ، ودخلها فانتثر عقد حياة أهلها وارْفضّ، وكان يقتل بالرّائحة، فما دخل دارا إلّا تحقق كلّ من فيه أنّ روحه رائحة"(الصفدي، 2004، ص114). وهذا ما سبق التّعبير عنه شعرا للصّفدي، إذ جعل للطّاعون رائحة يهلك الإنسان حال شمّها.

"ثمّ إنّه بذلك قتل جمعا لا يعلم جملة عدّتهم إلّا الذي قدّر به نهاية مدّتهم، وظهر بنوع آخر من الفناء، مبالغة في الحرص والاعتناء، فكان يقتل بظهور حبّه، يعزّ نعتها على من وصف وشبّه... وزاد أمره وأغرب، فكم من خلّ كان قد فقد خلّه كلمح البصر أو هو أقرب، وخلت عدّة مساكن من سكانها، وأفرط الأمر حتّى كادت دمشق تخلو من أربعة أركانها، وعمّت الوحشة ومحى الأنس من كلّ دار نقشه" (الصفدي، 2004، ص114). ويؤكد في الأسطر السّابقة

عظم عدد الضّحايا الذين خلّفهم هذا الدّاء كما يشير إلى أهم أعراضه، وهو ظهور الحبّة.

*** الدّراسة الفنّيّة لأدب الطّاعون**

كان الأدب في العصر المملوكيّ امتدادا للأدب في العصور السّابقة، فمعظم الإنتاج الأدبيّ "لم يخرج على أساليب القدامى واتجاهاتهم ومدارسهم، وقد لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنّ جلّ اهتمامهم وعنايتهم، تقليد هؤلاء والسّير في ركبهم، ومحاولة مضاهاتهم، أو التّفوّق عليهم.. هذه المحاولة هي التي يمكن النّظر إليها –اجتهادا– أسلوبا جديدا، أو اتّجاها مغايرا بعض الشّيء، طرأ على لغة الشّعر وموسيقاه وإيقاعاته المتمثّلة بما سميناه: الولع بالمحسّنات البديعيّة". (الأيوبي، 1995، ص407)

ويمكن تلخيص أهم خصائص ذلك الأدب بما يلي:-

*** المحسّنات البديعيّة**

البديع هو أحد علوم البلاغة الثّلاثة، وهو "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدّلالة" (الدراويش، 2009، ص442). وبما أنّ هذا العلم يشكّل ثلث حقل البلاغة، فلا غرابة أن تزخر به قصائد الشّعراء، ومنثورات الكتّاب، وأهم أشكاله التي وردت بكثرة في أدب الطّاعون ما يلي:-

١– التّورية: وهي "أن يذكر المتكلّم كلمة لها معنيان، قريب غير مقصود وبعيد مقصود " (الدراويش، 2009، ص287)، وللتّورية أثر جماليّ في العمل الأدبيّ، إذ تثير انتباه القارئ، وتستدعي إعمال العقل، وتضفي جوّا من الإيهام اللطيف على المعنى، وقد كثرت التّورية في الأدب الذي تناول مرض الطّاعون. مثل (الصفدي، 2004، ص114):- (الخفيف)

أيقظتنا يد الغلاء مرارا لنراعي التّقى فلم نتنبّه
وغدا الظّلم بالقناطير فينا فلهذا الطّاعون صار بحبّه

فكلمة حبّة توهم بأنّها الحبّة التي تباع وتشترى بدليل ذكر قناطير، وهو المعنى القريب، أمّا المعنى البعيد المقصود فهو الحبّة التي تظهر كعلامة للطّاعون خلف الأذن وتهلك صاحبها.

وقول ابن الورديّ في رسالته (ثمّ تيمّم الصّعيد الطّيّب) (ابن الوردي، 2006، ص87) فكلمة الصّعيد هنا لها معنيان، معنى قريب وهو التّراب بدليل ذكر التّيمّم، ومعنى بعيد وهو صعيد مصر، في إشارة إلى وصول الطّاعون إلى تلك المنطقة. وفي قوله أيضا (ابن الوردي، 2006، ص88):- (البسيط)

رأى المعرّة عينا زانها حور لكنّ حاجبها بالجور مقرونُ

إذ ظهرت التّورية في كلمة حاجبها، واحتملت هذه اللفظة معنيان، معنى قريب وهو الحاجب أعلى العين بقرينة ذكر العين والحور، ومعنى بعيد أي الحاكم.

٢– السّجع: "وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوف عليها، لأنّ الغرض أن يجانس بين قرائن ويزاوج بينها ولا يتم ذلك إلا بالوقف" (النويري ، 2007، ص158) وقد امتاز السّجع في الأدب المملوكيّ بقصر العبارات المسجوعة، و"قصر الفقرات يدلّ على قوة التّمكين وإحكام الصّنعة، وأقلّ ما تكون كلمتان" (النويري، 2007، ص164)، ومن ذلك: "ثمّ غزا غزّة، وهزّ عسقلان هزّة، وعكّ إلى عكا، واستشهد بالقدس وزكّى" (ابن الوردي

، 2006، ص87) والسّجع في النّثر يضفي ايقاعا موسيقيّا خاصّا، يشبه ايقاع القوافي في الشّعر. وما زاد النّصّ السّابق زينة، إيراد الكاتب لمظاهر متعدّدة من المحسنات البديعيّة كالجناس والطّباق.

٣– الجناس: وهو "تشابه اللفظين في النّطق واختلافهما في المعنى"، الدراويش،2009، ص502وقد ظهر الجناس بأنواعه في هذا الأدب، الجناس التّام وغير التّام، ومن أمثلة التّام قول ابن الورديّ واصفا انتشار المرض: "ما صين عنه الصّين" (ابن الوردي، 2006، ص87)، فالجناس جمع بين لفظتين متشابهتين ولكن اختلفتا في المعنى، فالأولى تعني النّجاة، والثّانية هي اسم البلد المعروف.

وقول الصّفديّ: "وكان يقتل بالرّائحة، فما دخل دارا إلّا تحقق كلّ من فيه أنّ روحه رائحة"(الصفدي، 2004، ص114)، إذ جمع الجناس بين كلمتين: بالرّائحة ورائحة، الأولى تعني قتل النّاس بالعدوى عن طريق الشّمّ، والثّانية تعني المنتهية والمغادرة.

ومن الأمثلة على الجناس غير التّام قول ابن الورديّ (ابن الوردي، 2006، ص90)

(الكامل)

الله ينقله إليهم عاجلا ليمزّق الطّاغون بالطّاعون

فهو يدعو الله أن يبتلي الشّامتين بالمسلمين من بلاد الفرنجة بهذا الدّاء، ونلحظ الجناس بين الطّاغون والطّاعون، إنّ هذا التّوظيف للجناس بنوعيه، يضفي على النّصوص لمسة جمال أدبيّ، ويحقق إيقاعا عذبا سواء في الشّعر أو النّثر.

٤– الطّباق: أو المطابقة وهي "أن تجمع بين ضدين مختلفين" (النويري، 2007، ص149) كقول ابن الورديّ (ابن الوردي، 2006، ص87):–

(الكامل)

إنّا اعترفنا بالذّنوب كلّنا عاص مسيء للعذاب استوجبا

إن كان لا يرجوك إلّا محسن في العالمين فمن يجير المذنبا

فالطّباق هنا ورد بين كلمتي محسن ومذنب، وهذا الطّباق يؤكّد المعنى، فقد قيل أنّ الأشياء تصبح أكثر بروزا إذا اجتمعت بأضدادها.

*** الاقتباس والتّضمين**

هو التّأثر بالقرآن الكريم والحديث الشّريف، "وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث ولا ينبّه عليه للعلم به"، (النويري، 2007، ص294) وقد يضمّن كذلك بعضا من أشعار العرب المعروفة أو الأمثلة السّائرة بينهم. ولهذا التّوظيف قيمة كبيرة وتأثير عظيم، فالقرآن الكريم والتّراث الشّعبيّ له سلطة أدبيّة على المتلقي، وقدرة على الإقناع. كقول ابن الورديّ (ابن الوردي، 2006، ص91):–

فلا عاصم اليوم من أمره سوى رحمة الله سبحانه

وقد تأثر بقوله تعالى: "قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم" (هود: 43/11) وهو يشبه الطّاعون، بطوفان نوح الذي لم ينج منه أحد إلّا برحمة الله. ويقتبس من نفس السّورة صورةً تظهر حال النّاس بعد وقوع العذاب "ثمّ تيمّم بها الصّعيد، وترك النّاس كالزّرع ما بين قائم وحصيد". (ابن الوردي، 2006، ص 87) متأثّرا بقوله تعالى:"ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك منها قائم وحصيد". (هود: 100/11)

ويبدأ ابن الورديّ رسالته عن ذلك النبأ متأثّر، بقوله عزّ وجلّ:"أليس الله بكاف عبده" (الزمر:39/ 36) إذ يقول: "الله لي عدّة، عند كلّ شدة، حسبي الله وحده، أليس الله

بكاف عبده"، ويدلّ بهذا الاقتباس على توكله على الله ورضاه بقدره.

ويتأثر المقريزي بالحديث النّبويّ الشّريف الذي يتحدث عن فضل العلم والعلماء "والعالم يستغفر له من في السموات والأرض حتّى الحيتان في جوف الماء" (أبي داوود، رقم الحديث 3641) ويقول: "عمّ أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، جميع أجناس بني آدم وغيرهم، حتّى الحيتان في البحر". (المقريزي،1970، ص720) فهذا الاقتباس من الحديث الشّريف يختصر حجم الكارثة الوبائيّة، فلم ينج من المرض أحد، حتّى الحيتان في البحر.

ويضمن ابن الورديّ رسالته بيتا يحمل نفس معنى وألفاظ بيت لأبي نواس، يقول ابن الورديّ (ابن الوردي، 2006، ص87):-

إن كان لا يرجوك إلّا محسن في العالمين فمن يجير المذنبا

(الكامل)

ويقول أبي نواس:-

إن كان لا يرجوك إلّا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

*** التّشبيه والاستعارة**

التّشبيه "هو الدّلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشّيء في نفسه.. وهو عدّة أقسام، منها التّشبيه المحسوس وهو القائم على مدركات السّمع والبصر والذّوق والشّمّ واللمس". (النّويري، 2007، ص46)

يلعب التّشبيه دورا هامّا في صياغة العمل الأدبيّ، إذ يحوّل المعاني الكامنة في الذّهن إلى صور واقعيّة، ودلالات خاصّة بأسلوب بليغ مشوّق، وتختصر تلك الصّور مجموعة من العبارات الحرفيّة، من خلال إظهار جانب من المعنى وإخفاء جانب، ما يثير شوق القارئ وفضوله ويدفعه إلى التّأمل ومحاولة الكشف عن المعنى من الاستعارات والمجازات والكنايات (ينظر: جابر عصفور، 1992، ص326، 327) وقد كثرت التّشبيهات في موضوع الطّاعون في الأدب، منها قول الصّفديّ (الصفدي، 2004، ص 116):-

(الخفيف)

لا تثق بالحياة طرفة عين في زمان طاعونه مستطير

فكأنّ القبور شعلة شمع والبرايا لها فراش يطير

أبدع الصّفديّ في رسم صورة الموت الكثير الذي خلّفه الطّاعون، فشبّه القبور بالشّمع المضيء، وشبه النّاس بالفراش الذي يرتمي على ذلك الضّوء، ويهلك. ويعود ليشبه سكّان البيوت بالشّمع المضيء، فإذا نزل به الطّاعون، أطفأ الحياة فيه، وترك أهله في ظلمات الموت، يقول (الصفدي، 2004، ص115):-

(السّريع)

قد نغّص الطّاعون عيش الورى وأذهل الوالد والوالدة

كم منزل كالشّمع سكّانه أطفأهم في نفحة واحدة

وتكثر الاستعارة بأنواعها، خاصّة التّصريحيّة والمكنيّة، والاستعارة "تشبيه حذف أحد طرفيه، وعلاقته المشابهة دائما". (الدراويش، 2009، ص408) يشبه ابن الوردي الطّاعون بالإنسان المعتدي الذي أصابه الجنون، فاقد العقل يصول ويجول حاصدا الأرواح، ثمّ يجعل منه سكّينا تفتك في كلّ مدينة، يقول (ابن الوردي، 2006، ص89):-

(الكامل)

الله أكبر من وباء قد سبا ويصول في العقلاء كالمجنون

سنّت أسنّته لكلّ مدينة فعجبت للمكروه في المسنون

ويشبّه الصّفديّ عام (749) بالسّبع المفترس، الذي أجهز على كلّ رفاقه (الصفدي، 2004، ص113):-

(المنسرح)

لما افترست صحابي يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعا بل كنت سبعا يقينا

*** الخاتمة**

بعد الانتهاء من البحث في أدب الطاعون في العصر المملوكي، تبدت ليّ النتائج الآتية:-

١- الطاعون حدث من الأحداث الكبيرة التي ظهرت في العصر المملوكيّ، فانعكست في الأدب، حيث استطاع الأدباء أن يصوروا هذا الحدث تصويرا بارعا ومختلفا، فجاء الشّعر والنّثر في ذلك الموضوع ليحملا سمات خاصّة، حافلان بعلوم البلاغة: بيانها وبديعها ومعانيها.

٢- عالج أدب الطّاعون كثيرا من القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة والصّحيّة والدّينية، فأثرى المكتبة العربيّة بما أضافه من حقائق ومعلومات وقعت في تلك الحقبة من الزّمن.

*** التوصيات**

وعليه، فقد أثار هذا الموضوع الشغف نحو سلسلة من الأبحاث المشابهة له، تقوم على دراسة الأوبئة في الأدب، ولعل ما حل بالعالم منذ بداية القرن الحالي من أوبئة وأمراض، وما تركته من أثر على المشهد الأدبي جدير بالبحث والتقصي.

*** المراجع**

القرآن الكريم

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت779هـ)، تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: دار التراث، 1968م

ابن تغري بردي، يوسف الأتابكيّ (ت874هـ)، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج10، ط1، القاهرة، دار الكتب المصريّة، 1368 / 1949

ابن الجزري، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الدمشقي ابن الجزري(ت833هـ)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (تاريخ ابن الجزري)، تحقيق عمر بن عبد السلام التدمري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1998م

الحمويّ، ياقوت بن عبد الله الروميّ (ت626هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1397/ 1977

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت(808هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، ط4، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ.

أبو داود، الإمام أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي(ت275هـ)، سنن أبي داود، ج3، بيروت: دار الجيل، 1408/ 1988

الذّهبيّ، شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عثمان التركمانيّ(ت748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، ط1، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1998م

الصفدي، خليل بن أيبك صلاح الدّين، (ت764هـ)، ألحان السواجع بين البادئ والمراجع، تحقيق، إبراهيم صالح، ج1، ط1، دمشق: المطبعة الدمشقيّة، دائر البشائر، 1425/ 2004

الطّبري، محمد بن جرير(ت310هـ)، تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، مصر: دار المعارف

العسقلاني، الحافظ أحمد بن حجر(ت852هـ)، بذل الماعون في فضل الطّاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، ط1، الرياض: دار العاصمة، 1411هـ

العمري، ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى(ت749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوريّ، ج1، ج27، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 2010م

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت774هـ)، البداية والنهاية، صححه محمد مصطفى زيادة، ط1، بيروت، مكتبة المعارف، 1977م

مسلم، الحجاج بن مسلم النيسابوري، (ت261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق نظر بن محمد الفريابي أبو قتيبة، ط1، دار طيبة، 1427/ 2006

المقريزيّ، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ط2، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1970م

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم(ت711هـ)، لسان العرب، المجلد 13، والمجلد5، ط3، بيروت: دار صادر1414/ 1994

ابن نباتة، جمال الدّين بن نباتة المصري الفاروقيّ (ت768هـ)، الديوان، بيروت: دار احياء التراث العربي، شركة علاء الدين للطباعة والنشر، تاريخ اضافته: 2012م

النّويريّ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب(ت733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين أحمد الدراويش، ط1، رام الله: مكتبة الموارد، 1428/ 2007.

ابن الورديّ، زين الدين بن حفص بن عمرو بن مظفر بن عمر الوردي الشّافعي(ت749هـ)، الديوان، تحقيق عبد الحميد هنداويّ، ط1، القاهرة: دار الآفاق العربيّة،2006/1427

ابن الوردي، تاريخ بن الورديّ، ط1، القاهرة: دار الكتب العلمية، 1996م

الأيوبيّ، ياسين، آفاق الشّعر العربيّ في العصر المملوكيّ، ط1، طرابلس، لبنان: جرّوس برس، 1415/ 1995

الدراويش، حسين أحمد علي أبو كتّة، بلاغتنا (العمدة في علوم البلاغة العربية)، ط1، القدس: مكتبة دار الفكر، 1429/ 2009.

الزّركليّ، خير الدين (ت1396هـ)، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، بيروت، دار العلم للملايين 2002م

عصفور، جابر، الصّورة الفنيّة في التّراث النقديّ والبلاغيّ عند العرب، ط3، المغرب، المركز الثقافي العربيّ، 1992م

المنصوري، علي جابر، النّقد الأدبي الحديث، ط1، عمان، دار عمار، 1420/ 2000

الباحثون السوريون، دولة المماليك (1517م- 1250م) ص2، file:///C:/Users/Admin/Downloads/syr_res_13717.pdf